ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

العمارة المدنية في دمشق
خلال العهد العثماني

إسماعيل شيخي شيخي أوسي
مدرس مساعد – قسم الفنون والآثار
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – بيروت
الجامعة اللبنانية – الجمهورية اللبنانية

مُلَخّص

لقد كان الفن العثماني استمرار للفن السلجوقي الإسلامي الذي ازدهر في الأناضول، والذي لا يختلف في كثير من عناصره عن الفنون المعمارية التي تأصلت في الشام في العهود الإسلامية، وانتشر هذا الفن الجديد في أنحاء الإمبراطورية وظهرت آثاره واضحة في الشام التي شملها الفتح العثماني منذ ١٥١٦م وكان هذا اللون الفني الجديد متجليًا في المظهر العام للمعنى وفي التخطيط وفي العناصر المعمارية والزخرفية، ولكن التقاليد الفنية السابقة للفتح لم تندمج كليًا بل امتزجت بالمظاهر الجديدة، ونلاحظ في العهد العثماني عناية خاصة بإنشاء الأسواق والخانات وذلك لتلبية للتوسع الذي حصل في المبادلات التجارية بين أقطار الإمبراطورية العثمانية وتطور بناء الخانات عن ذي قبل وأصبحت أكثر باحاته مسقوفة بالقباب والعقود. وأحسن نموذج للخانات العثمانية خان أسعد باشا في دمشق، كما خطيت الدور السكنية باهتمام خاص والتي يُطلق عليها اسم البيوت الشامية لما تحويه من تقاليد عريقة متماثلة حول بعضها إلى متاحف للحفاظ عليها، وأفضل نموذج لها هو قصر العظم، كما كان هناك عناية خاصة بمنشآت معمارية أطلاق عليها اسم "التكية" وهي تضم مجمع معماري يشمل المدرسة والجامع والسوق، وأفضل نموذج لها في دمشق هي التكية السليمانية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٦ مارس ٢٠١٩
تاريخ قبول النشر: ١٠ مايو ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

العمارة المدنية، العهد العثماني، القباب، العقود، التكية، المسجد

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055399

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إسماعيل شيخي شيخي أوسي. "العمارة المدنية في دمشق خلال العهد العثماني".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ٤١ – ٥٥.

مُقدِّمَةُ

تعطي العمارة الإسلامية في دمشق أنموذجًا رائعًا عن نشأة العمارة الإسلامية وتطورها، فقد كانت دمشق عاصمة الدولة الأموية وكان لها الحظوة بضم عمارة الجامع الأموي داخل أسوارها الموغلة في القدم، فضلًا عن العديد من المباني التي أظهرت العمارة بحلة فريدة من نوعها جمعت التقاليد السائدة حينها مع الابتكار الجديد للعقل المعماري المسلم، بعد أفول نجم هذه الدولة ونشوء الدولة العباسية. كان من الطبيعي أن تتحول الأنظار عن دمشق ولكن ليس لمدة طويلة. فقد أقام السلجوقيون أبنيتهم الكبيرة التي تحتوي على أواوين ذات عقد حجرية واسعة مفتوحة على باحة البناء في جهاتها الأربع أو في ثلاث من جهاتها مع وجود بركة ماء في وسط الباحة. بينما كانت العمارة الأيوبية ضخمة تتصف بالتحصين والتقشف تعكس الحالة السياسية السائدة حينها من صراع مع الفرنجة. تميزت العمارة المملوكية عن سابقتها بالعناصر الزخرفية مع محاولة الاستفادة من الفراغ بكل أبعاده نظرًا لكثافة البناء في تلك الحقبة مع تقلص المساحة الصالحة للعمارة. أما العمارة العثمانية فكانت جديدة في مؤثراتها إذ جلبها العثمانيون من موطنهم ولاسيما إستانبول، وكانت بعض العمائر نسخًا عما هو

موجود لديهم، مثل عمارة التكية السليمانية. لكن هذه التأثيرات الجديدة انسجمت بشكل واضح في المراحل اللاحقة مع العناصر المحلية وشكلت أنموذجًا معماريًا فريدًا، وأصبح قبلة للعمارة الإسلامية كلها. يعود الاستيطان الإنساني في مدينة دمشق إلى حقب تاريخية قديمة، ففي الألف الأول قبل الميلاد، ومن خلال النصوص الآشورية يرد ذكر دمشق خلال الحملات التي قام بها الملك الآشوري شلمنصر الثالث لتوسيع نفوذه إلى منطقة البحر المتوسط. واستمر ذكر اسمها على أنها مركز مهم للمملكة الآرامية، واشتهرت بكونها مركزًا لعبادة الإله حدد ومكان المعبد جزء من المساحة التي قام عليها الجامع الأموي لاحقًا[1]. في الحقبة الهلنستية عانت دمشق من الصراع الدائر بين خلفاء الإسكندر، البطالمة والسلوقيين، حتى قدوم أنطيوخس التاسع عام ١١١ ق.م، الذي جعل دمشق عاصمة لولاية فينيقيا وسورية الداخلية. وشهدت دمشق خلالها استيطانًا تمثل بإنشاء حي جديد في المدينة، يقع في الشرق من التمركز الآرامي، ويمكن حصره في المنطقة الواقعة بين نهر بردى وشارع القيمرية الحالي. وفي هذه الحقبة تم تجديد المعبد القديم وأصبح اسمه معبد الإله زيوس أو جوبيتر الدمشقي كنظير أو بديل للإله حدد الآرامي[2].

أخذت المدينة القديمة خلال الحكم الروماني (٦٤ ق.م-٣٩١ م) شكلًا أكثرا وضوحًا، فقد شيد الإمبراطور ديوقليسيان Dioklisian بين عامي (٢٩٠-٢٦٦ م) حصنًا ومصنعًا للسلاح، وبموجب المرسوم الذي أصدره الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosus في سنة 391م، أصبح الدين المسيحي دينًا رسميًا للدولة الرومانية، وتحول معبد جوبيتر الدمشقي إلى كنيسة مسيحية. كما تم توسيع السور القديم للمدينة، فأخفى الكثير من أجزاء السور القديم أسفل السور الحالي والمنازل المبنية لاحقًا، وهو مستطيل الشكل أبعاده ١٥٠٠ X ٩٠٠ م، واتخذت المدينة مخططًا شبكيًا كما هو معروف في العمارة الرومانية السائدة [3]، ويعد الشارع الممتد من جهة الشرق إلى جهة الغرب والمعروف حاليًا بشارع مدحت باشا هو المستقيم الرئيس Via Recta وهناك عدة أبواب للسور مازالت موجودة تعود للحقبة الرومانية مثل باب الفراديس، وباب شرقي، أما بقية الأبواب التي كانت تحمل أسماء الأبراج الفلكية، فهي معروفة من خلال الكتب التاريخية فقط بسبب قيام أبواب جديدة في أماكنها خلال الحقبة الإسلامية وهي؛ باب الجنيق وباب توما في الشمال، وباب بولص (كيسان) والباب الصغير في الجنوب، وباب الجابية في الغرب [4]. وفي الحقبة البيزنطية حافظت المدينة على مخططها الروماني مع بعض التجديد في بناء الحصن، نظرًا للمواجهات العنيفة مع الفرس. كما تم بناء العديد من الكنائس في مختلف أرجاء المدينة. حملت بدايات القرن السابع الميلادي في مطاويها، الكثير وأبرز عناوين المرحلة الجديدة نشوء دين جديد في جنوبي الجزيرة العربية هو الدين الإسلامي. وهو الدين الذي سيسود العالم بعد حين ليكون، خاتم الديانات السماوية جميعًا. ولسنا هنا بصدد الخوض في التاريخ السياسي والديني لهذه المرحلة؛ بل سنتناولها من الناحية الفنية ونقصد هنا العمارة الإسلامية في دمشق في العهد العثماني. وربما يعطي هذا العنوان انطباعًا بتحديد الفنون الإسلامية الأخرى وتقليصها، لكننا كما سنرى لاحقًا، فإن دمشق القديمة تعد بحق مثالاً مختصرًا يلخص الفنون والعمارة الإسلامية. نشأت العمارة الإسلامية في دمشق على أيدي الأمويين العرب المسلمين وتجلى فيها أسلوبًا الإبداع والتجديد مع الإفادة من استخدام العناصر القديمة المقتبسة؛ لتظهر هذه العمارة وجميلة بحلة رائعة؛ وذلك أول مرة في التاريخ الإسلامي.

بعد هذا الدور المؤسس للإسلام أصبح، النتاج الفني أكثر نضوجًا واستمر في ابتكار ما هو جديد؛ حتى إن الأصول المقتبسة من الحضارات السابقة للإسلام قد تلاشت تقريبًا وظهرت ملامح جديدة تمثلت بالقباب أو السقوف، والأبواب وفي تيجان وفي العقود، الأعمدة جميعها والتخطيط، وكذلك النقوش الزخرفية فضلا عن الهندسة. وكانت طبيعة المنشآت الجديدة ووظيفتها تصدر عن تلبية حاجات العقيدة الإسلامية والثقافة العربية وشروطهما، فظهرت الشخصية المتميزة والأصالة في الفن الإسلامي. ومن الخصائص العامة التي اتصف بها الفن الإسلامي في مجال العمارة والزخرفة هي، التنوع في الزخرفة وشمولها وتغطيتها كل فراغ، ومراعاة التناظر وتجنب تصوير الإنسان والحيوان ولاسيما في المباني الدينية، والتعويض عن ذلك بالزخرفة الطبيعة النباتية والهندسية ومشاهد الطبيعة. مع هذا التطور الجديد يجب ألا ننسى اتساع رقعة العالم الإسلامي في حينها، فامتدت الدولة العربية الإسلامية إلى الأند لس والمغرب العربي ومصر، وبلاد السند وشارف الوصول

إلى أوربة لولا خسارة العرب معركة بواتييه. حمل الانتشار الجغرافي معه بذور الحضارة الإسلامية، وملامحها بما فيها العمارة التي نراها ماثلة في كل البلدان التي وصلت إليها هذه الحضارة. بيد أن هذا الاتساع لم يحتم بالضرورة التطابق التام للفنون الإسلامية. والنزعات الفردية، فقد أسهمت الأذواق وكذلك التقاليد الموروثة ومواد البناء المتوافرة في كل بلد وإقليم في تكوين المنشآت المعمارية. وأخيرًا نشير إلى التيارات السياسية الجديدة وما كانت تحمله من تأثيرات محددة في تغيير ملامح الفن السائد وتوجيهه في إطار جديد. الأمر الذي أدى إلى وجود مدارس فنية عديدة داخل نطاق الفن، الإسلامي المدرسة الأم، فكان الفن الأموي والعباسي والفاطمي والسلجوقي والأيوبي والمملوكي والعثماني [٥].

لمحة تاريخية

أدى انتقال الحكم من السلجوقيين إلى العثمانيين في آسيا الصغرى إلى تغير الحالة السياسية، فقد اخذ العثمانيون على عاتقهم تحطيم الإمبراطورية البيزنطية وحمل لواء الإسلام إلى ما وراء البوسفور واستولوا على أدرنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) وبعد حوالي قرن استولوا على القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) واتخذوها عاصمة للإمبراطورية الجديدة التي كونوها وفي أواسط القرن السادس عشر امتدت حدود إمبراطوريتهم من هنغاريا وبحر الادرياتيك إلى العراق ومصر، وأصبح لها مقام هائل بالاستيلاء على الأماكن الإسلامية المقدسة وانتقال الخلافة الإسلامية إليهم، كما حملت سفنهم علم الإمبراطورية فوق جميع البحار، وأصبح طابع استانبول، عاصمتهم هو الطابع الغالب على جميع المدن الشرقية مثل دمشق وبغداد والقاهرة وتونس والجزائر. ومنذ أن أصبحت هذه المدينة عاصمة للعثمانيين أخذ ينشأ فيها أسلوب جديد في هندسة المباني متأثرة بطراز (أيا صوفيا) كنيسة جوستينان الشهيرة التي شيدت في القرن السادس للميلاد وتحولت إلى مسجد بعد الفتح [٦]. وكانت دمشق اختصارًا مركزًا ومثالًا دالاً على نشوء العمارة الإسلامية وتطورها. وفيما يأتي سنستعرض ملامح هذه العمارة وأمثلتها خلال الحقبة العثمانية.

أولاً: خصائص العمارة الإسلامية العثمانية

عرف الفن الإسلامي في القرن الخامس عشر مركزًا من مراكز الحضارة ازدهرت فيه الفنون. ذلك هو القسطنطينية (استانبول)، العاصمة الجديدة للدولة العثمانية التي دخلها السلطان محمد الفاتح سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م). ومنذ أن أصبحت هذه المدينة عاصمة للعثمانيين أخذ ينشأ فيها أسلوب جديد في هندسة المباني متأثر بطراز (أيا صوفيا) كنيسة جستنيان الشهيرة التي شيدت في القرن السادس للميلاد، وتحولت إلى مسجد بعد الفتح العثماني. وكان الفن العثماني قبل ذلك استمرارًا للفن السلجوقي الإسلامي الذي ازدهر في الأناضول والذي لا يختلف في كثير من عناصره عن الفنون المعمارية التي تأصلت في سورية في العهود الإسلامية. وانتشر هذا الفن الجديد في أنحاء الامبرطورية العثمانية، وظهرت آثاره واضحة في سورية التي شملها الفتح العثماني منذ عام (٩٢٢هـ/١٥١٦م). ونرى أن نبرز خصائص هذا الفن الجديد في النواحي التالية:

١/١-من حيث المظهر العام للعمائر:

نلاحظ أن العمارة العثمانية في الخارج تبدو كتلة متراصة بالغة الفخامة والارتفاع ويلاحظ في هذه الكتلة أشكال والعناصر المتنوعة كالشبابيك والشمسيات (النوافذ الجصية) والقناطر والرفاريف والدعائم الجدارية البارزة وهكذا يطغى التكوين المعماري ومجال التصميم على الزخرفة في المظهر الخارجي وفي الواجهات [٧].

١/٢-من حيث العناصر المعمارية:

- القباب:

نشاهد في الجوامع أن الحرم أو المصلى أصبح يبنى على شكل قاعة مربعة، مسقوفة بقبة كبيرة لها رقبة من طابق واحد كثيرة النوافذ. وبذلك أصبح المصلى قليل الأعمدة والعضائد التي كانت تقسمه إلى أروقة ومعازب. ويتقدم المصلى رواق مسقوف بالقباب أيضًا يطل على الصحن ونجد أمثلة على هذا التصميم الجديد في مساجد السليمانية والدرويشية والسنانية في دمشق. كما نجده في مساجد الخسروية والعادلية والبهرمية في حلب، وبدلاً من المدرسة المعروفة في العهود السابقة، ظهرت التكية بهندستها الجديدة كمجمع معماري ينم المسجد، وهو شبه مستقل ويشغل جناحًا خاصًا، وغرف السكن والمطابخ والمطاعم والقاعات والحدائق. فالتكية أكثر شمولاً وضخامة من المدرسة. ولم يعد التربة أو المدفن جزءًا من الجامع أو التكية. كما الحق مكتب لتعليم الأولاد بهذا المجمع. نجده في الدرويشية والسنانية بدمشق. ونلحظ في العهد

العثماني عناية خاصة بإنشاء الأسواق والخانات، كان ذلك تلبية للتوسع الذي حصل في المبادلات التجارية بين أقطار الإمبراطورية العثمانية، وكانت سورية تتمتع وقتئذ بمركز ممتاز بسبب موقعها الجغرافي مما جعلها منطقة مرور وتجمع لقوافل الحج.

تؤلف أسواق العهد العثماني مجموعة معمارية متكاملة تضم المخازن التجارية والخان والجامع والحمام والمدرسة. وأحسن مثال لهذه الأسواق سوق الخياطين والحميدية وكلاهما في مدينة دمشق. وتطور بناء الخانات عن ذي قبل، وأصبحت أكثر باحاتها مسقوفة بالقباب أو العقود، وعني ببنائها وزخرفتها بالحليات المعمارية.

- العقود:

أما الأقواس أو العقود، فقد شاع فيها شكل جديد، رأينا أن نسميه بالقوس الفارسي المتطور. لقد عرفنا سابقًا القوس الفارسي الذي ظهر في العهد العباسي ثم انعدم استعمال في سورية. وهو قوس مكسور أي مدبب، مؤلف من جزأين، الرأسي مستقيم والسفلي محدب. أما القوس الجديد العثماني فإن القسم المستقيم أصبح مقعرًا قليلاً نحو الخارج. وقل استخدام القوس المدببة المخموسة أو المتجاوزة، وهي الأشكال التقليدية في مباني العهود السابقة كذلك استخدم القوس نصف الدائري المجزوء أي الذي تقل فتحته عن نصف الدائرة في الأبواب والشبابيك، أما الأعمدة فقد شاع فيها استعمال التيجان المقرنصة، بأشكال متعددة لم تعرف من قبل، وقد ظلت المقرنصات بشكل عام عنصرًا لا يستغنى عنه في عقود بوابات المباني العامة وأحيانًا في زوايا القباب من أجل تأمين الانتقال بين المستويات المختلفة.

- العمد والعضائد:

تم استخدام عضائد ضخمة لحمل القباب الكبيرة المركزية وهي على أشكال مربعة أو مضلعة أو اسطوانية أو صليبية المسقط ويلاحظ هنا أن العضائد لا تنتهي عند ارتكاز العقود عليها بل تستمر لتبرز حول رقبة القبة. أما الأعمدة المنحوتة من الرخام أو الحجر فقد استخدمت لحمل قناطر الأروقة وكانت التيجان السائدة من النوع المقرنص وظهر نوع جديد من التيجان أطلق عليه بالتركية (بقلاوة) تشبها بنوع من الحنيات التركية اللذيذة المشهورة [٨].

١/٣-من حيث العناصر الزخرفية:

نجد ألواح الخزف الملون المسمى القاشاني تصبح عنصرًا هامًا في كسوة الجدران الداخلية وتزيينها، وفي أماكن محددة في الواجهات، كأن توضع لوحات منها فوق أبواب والشبابيك. ويتألف من رصف هذه الألواح مواضيع زخرفية جميلة بألوانها وأشكالها. ولقد عرفنا الخزف مستعملاً قبل ذلك في العهد المملوكي بشكل محدود جدًا. ولكن صناعة الخزف تطورت في العهد العثماني من حيث الصنعة والشكل والمواضيع الزخرفية. فهي بلاطات مربعة رسمت عليها المواضيع الزخرفية وهي غالبًا عروق نباتية وأزهار، يطغى فيها اللونان الأزرق والأخضر، وغطيت الألواح بطبقة زجاجية شفافة تحمي الرسوم الملونة. ازدهرت صناعة القاشاني في العهد العثماني وأنشئت له مصانع عديدة في سورية أهمها في دمشق وحلب، وذلك إضافة إلى مصانع المشهورة في كوتاهية ورودوس [٩].

إلى جانب القاشاني كعنصر جديد من عناصر الزخرفة فقد ظلت العناصر التقليدية مستعملة في المباني السورية، نذكر من ذلك الفسيفساء الرخامية والحجارة المنقوشة بالرسوم الهندسية والأحجار والرخام الملونة بالتناوب في مداميك الوجهات، والنوافذ الجصية المعشقة بالزجاج الملون مع تطور في مواضيعها الزخرفية. وشاع نوع جديد من الفسيفساء عرف (الأبلق) منفذ بطريقة جديدة وذلك بحفر المواضيع الزخرفية على الحجارة ثم ملؤها بنوع خاص من الملاط الملون. وغدا هذا النوع من الزخارف الفسيفسائية يزين الواجهات الداخلية وجدران الغرف في أكثر الدور والقصور. وتطورت كذلك زخرفة الأخشاب، فقلت العناية بأعمال الحفر والتخريم، وشاع بدلاً منها الخشب المدهون المزخرف بالرسوم الملونة والموشى بالذهب المعروف بالعجمي، المستعمل في سقوف الغرف وفي كسوة الجدران ولاسيما في القصور وبيوت السكن. وأما السقوف فقد غدت بزخارفها وألوانها كقطعة السجاد [١٠].

ثانيًا: أهم العمائر المدنية العثمانية في دمشق

سوف أقوم بدراسة لبعض المباني المدنية الهامة المشيدة في العهد العثماني في مدينة دمشق:

١/٢-خان أسعد باشا

شيدت في العهد العثماني خانات كثيرة، بسبب تزايد النشاط التجاري وانتظام قوافل الحج القادمة إلى دمشق من أنحاء العالم الإسلامي، ولقد أحدث

فيها هذا الموسم نشاطًا اقتصاديًا ملحوظًا، كان يستعد له أهل التجارة والمهن طوال العام. ونجد هذه الخانات موزعة داخل المدينة القديمة في مراكز التجاري المحصور بين أسواق مدحت باشا والبزورية والحرير والقلبجية والخياطين. ومن أهم هذه الخانات هو خان أسعد باشا الذي سأقوم بدراسة بشكل مفصل[١١].

-موقع الخان وتاريخه:

شيد الخان والي أسعد باشا إسماعيل باشا العظم الذي حكم بين عامي ١٧٤٣ و ١٧٥٦ وقد بدأ ببنائه في عام ١٧٥١ وتمت عمارته سنة ١٧٥٣، يعتبر خان أسعد باشا أحسن خانات دمشق، ويقع في قلب المدينة القديمة، وسط سوق البزورية الشهير الكائن جنوبي الجامع الأموي، وهذه المحلة عريقة في شهرتها التجارية منذ العهود العربية الأولى، تكثر فيها الأسواق والخانات وتستقطب النشاط التجاري لمدينة دمشق، وهي اليوم مركز بيع مواد العطارة والسكاكر والروائع العطرية والشموع والحلي وغير ذلك من الصناعات اليدوية المختلفة، والمنطقة إضافة إلى مكانتها التجارية، فإنها ذات شهرة سياحية واسعة بسبب وجود الجامع الأموي وقصر العظم وحمام نور الدين والعديد من المباني التاريخية الأخرى فيها[١٢].

-المخطط الوصف المعماري:

يحتل خان أسعد باشا رقعة تقدر مساحتها ب (٢٥٠٠) مترًا مربعًا، وشكله شبه مربع، أطوال واجهاته: الشرقية (٣٥,٥)، الشمالية (٥٢)، الجنوبية (٥١,٥)، الغربية (٤٦٣٥) مترًا. ويتألف من طابقين يحيطان بالصحن ومدخل مسقوف واجهته الرئيسية تحتل جانبًا من سوق البزورية وتحتوي على بوابة الخان ومسجد الخان ومسجد صغير وعلى عدد من الدكاكين والمخازن التجارية. كما تؤلف واجهته الجنوبية جزءًا من سوق الصقالين وتتوزع فيها مجموعة من الدكاكين الصغيرة. أما واجهته الشرقية، فهي سور أصم يطل على زقاق الحي المجاور، وكذلك مواجهته الشمالية فأنها محجوبة بالمباني الأقدم عهدًا منه (حمام نور الدين والمدرسة التنكرية)[١٣]. يضم الخان واجهة ضخمة فيها ردهة خارجية تضم البوابة الخشبية التي تؤدي إلى دهليز كبير يصل إلى باحة مربعة الشكل مغطاة بثماني قباب محمولة على أربعة أعمدة. ويقع مدخل الخان في وسط تلك الواجهة، وعلى جانبيه كوتان داخل كل منهما سبيل ماء، وتعلو كلاً منهما نافذة مستديرة يزين إطارها الخارجي زخارف رائعة، أما المدخل فيتألف من ردهة خارجية ضمن السوق ينتهي جدارها الجانبين من الأسفل بمقعدين حجريين يسميان (مكسلتين).

في كل زاوية من الزاويتين الخارجيتين لتلك الردهة يوجد ثلاث أعمدة صغيرة القطر (سوبريات) منحوتة على شكل ضفائر حلزونية لتلك ومتكسرة وملتفة، ولكل عمود قاعدة وتاج مزخرفان. تنتهي الأعمدة الثلاثة السابقة من الأعلى بثلاث أقواس حجرية متتالية لكل منها شكل مختلف، تتألف القوس الخارجي من سلسلة من الحجارة المزخرفة المتناوبة (مشربيات)، أما القوس الوسطى فحجارتها مقولبة بأشكال تشبه أكعاب الكتب، والقوس الداخلي يتألف من حجارة مقصقصة ذات لون أبيض وأسود بالتناوب.

البوابة الخشبية للخان مصفحة بالحديد ومزخرفة بالمسامير، وتتألف من مصراعين ضخمين من الخشب في أحداهما باب صغير (باب خوخة)، ساكن البوابة عبارة عن جزء من قوس دائرية تعلوها واجهة مؤلفة من خطوط منحنية تتقاطع بدائرة صغيرة فيها ياقوتة فخمة مفقودة حاليًا (الشكل: ٢). ويعلو بوابة الخان مجموعة رائعة من المقرنصات معقدة الزخرفة تنتهي في الأعلى بتقعر على شكل صدفة[١٤] (الشكل: ٣). وتؤدي البوابة إلى دهليز طوله (١٢) م وعرضه (٤,٢) م وارتفاعه وسطيًا (٥,٧) م مسقوف بعقود حجرية متقاطعة تزينها زخارف جصية مؤلفة من خطوط متقاطعة وزهيرات ونجميات، وفي بداية الدهليز من كل جانب توجد غرفة، ثم يتوالى بعد ذلك عدد من الكتبيات الجدارية كانت تستخدم لعرض البضائع، وفي القسم الأخير من الدهليز يقع في كل جانب، درج يؤدي إلى الطابق العلوي، يلتقي الدرجان مع بعضهما عبر الأروقة، وينتهي المدخل بقنطرة واسعة مفتوحة على صحن الخان[١٥] الشكل:٤.

- الصحن والقباب:

يؤلف صحن الخان باحة مربعة طول ضلعها (٢٧) مترًا وهي مبلطة بالحجر الأسود يتوسطها بركة ماء كثيرة الأضلاع في وسطها فسقية (الشكل: ٥). والصحن مغطى بسقف يتألف من تسع قياسات كبيرة موزعة على ثلاثة صفوف وهي محمولة على عقود حجرية عددها (٢٤) عقدًا، تستند من ناحية على أربع عضائد مربعة في وسط الصحن، وتستند من ناحية ثانية على جدران الخان المحيط بالصحن. وهذه القباب متساوية من حيث الحجم والسعة والارتفاع قطر كل منها ثمانية أمتار وترتفع ذروتها عن أرض الخان اثنان وعشرون مترا.

أما باقي مساحة الصحن فمسقوفة بأقباء أو عقود متقاطعة ولكن الوضع المعماري المتماثل للقباب لكامل عناصرها بنفي ذلك. (الشكل:٦-٧).

-الطابق الأرضي:

يحيط بالصحن من كل جهة غرف ومخازن موزعة على طابقين الطابق الأرضي له واجهة حجرية فتحت فيها أبواب المخازن وشبابيكها وهي شبابيك مستطيلة ذات شبك حديد موجود على مستويين أرضي وعلوي. والمخازن مصممة على شكل أجنحة مستقلة يتألف كل منها من غرفة أمامية تستخدم كمكتب، ويليها في الداخل غرفة أو غرفتان لهما طاقات أعلاها مفتوحة في جدار السور، وتعد هذه المخازن ثلاثة وعشرين تطل مباشرة على صحن الخان، سوى تلك التي تقع في وزايا البناء فأنها تتصل بالصحن بواسطة ممر ضيق مسقوف. ولا يشبه هذا التخطيط ما كانت عليه الخانات في العهود السابقة إطلاقا، بل هو أشبه بتصميم القصور الأموية كقصر الحير الغربي مثلاً [١٦]. ويتألف الطابق العلوي من ثلاثة وأربعين غرفة، دون عد غرفتين مقامتين على القسم الشمالي للجانب الغربي، المبينتين فوق ضريحي الشهيدين واللتين لم تستعملا أطلاقًا احترامًا لهذين الشهيدين وتوجد أيضًا خمسة ممرات صغيرة جانبية في الطابق العلوي، إحداهما في منتصف الجانب الشمالي يؤدي إلى جناح صغير متهدم، ربما كانت فيه مظاهر هذا الطابق (الشكل: ٨). أن كل الغرف العلوية مقببة سريريًا، ومزودة بأبواب مقوسة في أعلاها بأقواس صغيرة منخفضة، وكل هذه الأبواب من خشب قديم منقوش، وكل غرفة مجهزة بنافذة تطل على الشارع وأخرى تطل على الرواق[١٧]. ولهذا الطابق واجهة حجرية مطلة على الصحن، مؤلفة من قناطر ثلاث في كل واجهة. وكل قنطرة من هذه القناطر عبارة عن قوس حجري مركب داخل الأقواس الحاملة لقباب الصحن مزود في الأسفل بدرابزين خشبي وعلى كل من جانبي القنطرة شباك مستطيل[١٨] (الشكل ٩).

- العناصر الزخرفية:

يعتبر المنجور الخشبي في الخان مثالاً رائعًا ومتميزًا للمنجور المستخدم في ذلك الوقت وشاهدًا على براعة حرفيي الرسام، فالنوافذ والأبواب مصنعة من الخشب الرومي ومنفذة بطريقة الحشوات، وقد زخرفت أبواب الغرف في الطابق الأرضي بالخيط العربي (أرابيسك)، أما أبواب الطابق الأول فقد نقشت عليها تشكيلات مختلفة ومتنوعة من الزخارف الهندسية المعقدة بواسطة الخطوط المحفورة المتقاطعة والمسامير الحديدية. أما النوافذ القباب فقد صنعت بأكملها من الخشب المعشق مع الجبس والزجاج الشفاف.[١٩] (الشكل:١٠)

٢/٢-قصر العظم

-موقع القصر وتاريخه:

يقع هذا القصر عند سوق البزورية إلى الجنوب من جامع بني أمية الكبير، شيده الوالي أسعد باشا العظم (١١٦٣هـ/١٧٤٩م) فوق جزء من معبد (جوبيتر) الروماني، وتعددت احتمالات وقوعه فوق قصر معاوية بن أبي سفيان المسمى (قصر الخضراء) أو (دار خالد بن الوليد)، ومن المعروف أنه يشغل مكان دار نائب السلطنة في العهد المملوكي (الأمير تنكز) المعرفة (بدار الذهب) لما كان فيها من غنى وزخرفة والمشيدة فوق (دار الفلوس).

وفي سبيل بناء هذا القصر، جند الوالي أسعد باشا أمهر الصناع والعمال، كما استولى على العديد من مواد البناء من دور أهل دمشق وأشجارها، واستغرق أنجاز العمل ثلاث سنوات فجاء آية في الإبداع وحسن العمارة والفخامة، وجمال الزخارف والنقوش، وقسم إلى (السلملك) وهو قسم الرجال، و(الحر ملك) للنساء زار هذا القصر عديد من الملوك والرؤساء والشخصيات في أيام الوالي حسين ناظم باشا، واتخذ المفوض السامي الفرنسي مقرًا لإقامته في بدايات الاحتلال، كما اتخذ أيضًا مقرًا (للمعهد الفرنسي) في تلك الحقبة وما أن بدأت نيران الثورة السورية بالاندلاع سنة ١٩٢٥ حتى أصيب هذا القصر بالقذائف التي أطلقت على المنطقة من ثكنات القوات الفرنسية المتواجدة في (قلعة المزة) وغيرها فأصيب إصابات مباشرة أدت إلى تهدم جزء كبير منه، فأعيد ترميمه إلى ما كان عليه في السابق، وصار متحفًا للتقاليد الشعبية في (١٣ أيلول ١٩٥٤)[٢٠].

- المخطط والوصف المعماري:

ساحة القصر ٥٥٠٠ م٢، يتألف المبنى من كتل معمارية أرضية فيها عدد من الأقبية (تحت القاعة الكبرى وفي جناح الخدم للمونة تحديدًا). وتعلوها في بعض الأجزاء عرف علوية تتألف بمجملها من: ست عشرة قاعة كبيرة – تسع عشرة غرفة أرضية – وتسع غرف في الطابق العلوي – ثلاثة أواوين – ورواق بخمسة أقواس محمولة على أعمدة ذات قواعد وتيجان مزخرفة. في الفسحات السماوية من المبنى أربع برك كبيرة كانت تستمد ماءها من نهر قنوات، كما

ويوجد داخل القاعات والأواوين تسع عشر فسقية ماء، بعضها أرضي والبعض الآخر جداري. في المبنى حمام متكامل الأقسام براني وسطاني وجواني، فيه عدد من المقصورات وخزانة (أميم) بحلتين نارية ودخانية لتسخين الماء. كان يتبع للمبنى مصلى ألحق بدار ثانية / ومرآب للعرابات حول فيما بعد إلى مستودع واصطبل للخيل قبالة مدخل القصر- حول إلى مخازن تجارية.[٢١] (الشكل:١١).

- أقسام القصر:

كانت البيوت الدمشقية العريقة المشادة في مرحلة الحكم العثماني ذات تقسيم ثلاثي الأجنحة، درجت تسميتها التركية، ولا تزال تتناقلها الألسن حتى الآن وهي: (الحر ملك) أي جناح العائلة، و(السلاملك) أي جناح الضيوف و(الخد ملك) أي الجناح الخاص بالخدمة. تتوسط هذه الأجنحة بوابة كبيرة تفتح على دهليز مدخل القصر. يتألف مدخل القصر من بوابة كبيرة يتوسط فسحها السفلي باب صغير (باب خوخة)، تفضي- البوابة إلى ممر عريض ذي سقف معقود بعقود متصالبة قليلة الإنحناء[٢٢] (الشكل: ١٢). يتفرع الممر إلى اتجاهين: يقود مساره الجنوبي العريض إلى جناح الضيوف، ومساره الشمالي إلى جناح العائلة ومنه إلى جناح الخدم.

-جناح العائلة (الحر ملك):

أطلقت تسمية (حرملك) التركية الأصل على هذا الجناح من القصر، لأنه مخصصًا لعائلة الباشا، وكان محضورًا على أي رجل غريب دخوله لما يتميز به المجتمع آنذاك من صرامة في الفصل بين الجنسين (الرجال والنساء) شغل هذا الجناح مساحة تزيد عن ثلثي مساحة القصر- الإجمالية ويحلق به جناح خاص بالخدم (الخد ملك) في زاويته الشمالية الغربية، يمتاز الجناح (الحر ملك) بأبنيته الفارهة الغنية بالزخارف والمؤلف بعضها من طبقتين، وبفسحته السماوية الواسعة المتكظة بنبات الزينة الفواحة، وأشجار الحمضيات وأشجار السر- السامقة، كما يمتاز بوفرة بالبحرات والفساقي الرخامية والمساقط المائية الخلابة. (الشكل:١٣).

للجناح ثلاثة أبواب تصله بالمدخل الرئيس، وممر ضيق مجهز بخزانة دوارة يربطه بجناح الضيوف. في الجناح إيوانات شمالي معمد بشكل رواق بثلاث فساقي رخامية وجنوبي ذو قوس شاهق، والإيوانان مخصصات للجلوس، الشمالي شتوي والجنوبي صيفي الشكلان ١٤-١٥. خصصت الغرف الأرضية من الجناح لحاجات النهار من استقبال وراحة وطعام، أما الغرف العلوية فكانت مخصصة للنوم. خصصت أجمل قاعتين في الجناح لاستقبال ضيوف العائلة (قاعة العروس والقاعة الكبرى) (الشكل:١٦). وفي الجناح حمام خاص بالعائلة ويحتوي حاليًا على مشاهد ومعروضات متحف التقاليد الشعبية[٢٣].

-جناح الضيوف (السلاملك):

يشغل جناح الضيوف الجهة الجنوبية من القصر- ويتصل بمدخل القصر عبر ممر عريض، وبجناح العائلة (الحر ملك) عبر ممر ضيق مزود بدولاب خشبي دوار للتخديم، كما كان لهذا الجناح باب خارجي فرعي في جداره الجنوبي غرب الإيوان (الشكل: ١٧). يتكون جناح الضيوف من فسحة سماوية تتوسط بركة ماء كبيرة مستطيلة الشكل يتوزع فائض مياهها على البحرات الواطئة في جناح العائلة بواسطة مجارير أرضية يجري الماء فيها, لمبدأ اختلاف المناسيب ومن قاعتين تقعان عند الطرف الشمالي من الفسحة السماوية على جانبي الممر العريض المؤدي إلى جناح، ومن قاعتين أخريين تشكلان الجهة الجنوبية من الجناح، يفصل بينهما إيوان شاهق، نظن من خلال بعض البقايا المعمارية في الجزء الغربي المتاخم لقاعة الصناعات الجلدية أنه كان يلحق بهذا الجناح في الزاوية الجنوبية الغربية مطبخ صغير مستقل عن مطابخ جناح الخدم وذلك لتخديم هذا الجناح (الشكل: ١٨). أنجز ترميم هذا الجناح وجهز كمتحف للصناعات اليدوية والأزياء التقليدية في بداية الستينات من هذا القرن[٢٤].

- العناصر الزخرفية:

إذا وقف الزائر في باحة القصر- حار يقلب ناظريه، فواجهات القصر- وجدرانه مزخرفة من أعلاها إلى أسفلها، بمداميك ملونة بالتناوب وبأشرطة منقوشة، وأحجار مرصعة بالفسيفساء ونوافذ مختلفة الأشكال متعددة الزخرفة. يتصف بناء القصر- ببساطة مظهره الخارجي، وبفخامة وترف الزخارف على جدران وسقف قاعاته وواجهاته الداخلية المطلة على الفسحات السماوية. تقتصر- زخرفة الواجهة الخارجية لمدخل على شريط حجري – حفر – غائر – متماوج ومحلزن يحيط بالقسم العلوي من الواجهة، وتحصر- فوق ساكف البوابة المقوس بعض النجوم الحجرية المنزلة والمحاطة بأطر من الزخارف المحفورة، كما رصت حواف البوابة بقطع معينية الشكل من الصدف الزجاج[٢٥]. تتوزع في أنحاء متفرقة من القصر-، وبخاصة في الأجزاء العلوية من الواجهات الداخلية ومن جدران

القاعات والأواوين وسطوح الأقواس الداخلية، زخرفة فسيفسائية كثيرة الانتشار في البيوت الدمشقية تعرف ب (الأبلق)، وهي طريقة تقليدية في مجال الزخرفة المعمارية، تعتمد على حفر المواضع الحجرية المراد زخرفتها، ثم ملئها بنوع خاص من الملاط الملون، تغلب على مواضيع هذه الزخرفة التقليدية الأشكال والخطوط الهندسية الدائرية والمستقيمة والمتعرجة والمنقطة بأشكال النجوم والعروق النباتية والأزاهير شديدة التناسق. تشكيلات من الجبصين بينهما فراغات تعشق بالزخارف الملونة، نوافذ القصر للحالية بسيطة، وربما كان شكلها الأقدم مزخرفًا بهذه الطريقة، لكننا نلاحظ أن النوافذ العلوية من القصر المطلة على الفسحة السماوية قد زينت بأطر جصية وحجرية حفر وبتشكيلات جصية كالمقرنصات (الشكل:١٩).

أما أبواب القاعات فقد نفذت بطريقة زخرفة الخيط العربي (الآربيسك) المدكك بحشوات ذات أشكال هندسية متنوعة، يتميز من خلالها شكل كل باب عن الآخر، هذا وقد رصعت بعض الأبواب في أقسامها العلوية بقطع صغيرة من الصدف الزجاج. كما تنتشر في أنحاء متفرقة من القصر في الفسحات السماوية وبخاصة في الأرضيات أمام الأواوين وأرضية الرواق المعمد، وفي عتبات القاعات والجدران الداخلية في القاعات الكبرى والفساقي، فسيفساء رخامية تدعى ب "المشقف " تتخذ أشكالاً هندسية مرصوفة في ألواح رخامية متنوعة الألوان.

أما المقرنصات الحجرية في القصر فقد استخدمت للزينة ولتأمين الانتقال بين مستويين مختلفين وبخاصة عند قواعد بعض الأقواس وفي الزوايا داخل القاعات وخارجها، وعند بعض الأجزاء العلوية فوق النوافذ لكن الزخارف الأكثر انتشارًا والتي لا تخلو منها أغلب القاعات والأروقة في المبنى هي الأخشاب الملونة، الزخرفة والموشاة بالألوان الترابية وبالذهب والفضة، المعروفة ب (العجمي). لقد استخدمت طريقة العجمي في تزيين كسوة الجدران والأسقف، بالاعتماد على مواضيع هندسية ونباتية مع حلية بشكل أشرطة من الخط العربي منظومة في أبيات شعرية وآيات قرآنية وأقوال مأثورة.[٢٦] (الشكل:٢٠).

٣/٢-التكية السليمانية:

-موقع التكية وتاريخها:

بنيت في عهد السلطان سليمان القانوني في مكان القصر الأبلق على شكل تكية من جهة الغرب ومدرسة في الشرق وسوق يمتد بين هذه المدرسة ونهر بردى، وقد بدأ بناء التكية سنة (٩٢٠ هـ /١٥١٤م) في عهد الوالي (خضر أو خضري باشا) وانتهى سنة (٩٦٧ هـ/١٥٥٩م) أيام نفس الوالي. أما بناء المدرسة فلم يبدأ إلا سنة (٩٧٤ هـ/١٥٦٦م) أيام الوالي (الوزير والمشير لالا مصطفى باشا). تقع التكية السليمانية عند مدخل مدينة دمشق الغربي في ميدان (الشرق الأدنى)، يمر نهر بردى عن شمالها ويفصله عنها طريق كان يسمى قديمًا (طريق تكية السلطان سليم). كان المدخل الرئيس للتكية من الباب الشمالي المطل على بردى وأمامه جسر يمتد حتى شارع بيروت، ومن الطبيعي أن بناء هذا الجسر تم في نفس الفترة الزمنية التي بنيت بها التكية، ومكان المهندس المشرف على البناء إيراني الأصل واسمه (ملا) يساعده العديد من مراقبي البناء الأتراك، أما طراز عمارتها فعثماني بحيث لم يكن هذا الطراز مألوفا في دمشق حتى تلك الحقبة خصوصًا (المئذنتين اللتين شبههما البعض بالمسلتين) لشدة نحولها. وفي عام ١٩٠٧ تولى دمشق الوالي شكري باشا فأمر بإنشاء جسر جديد يمتد من شارع بيروت حتى الطريق الواصلة إلى التكية الحميدية والفاصلة بين الواجهة الغربية للتكية وبين حديقة المتحف الوطني وسمي الجسر باسم جسر الحرية[٢٧].

-المخطط والوصف المعماري:

يعتبر هذا المبنى منشأة عثمانية تتألف من تكية كبيرة في الجانب الغربي، ومدرسة مستقلة عنها في الجانب الشرقي، وسوق يمتد أمام المدرسة من شمالها وسأقوم بدراسة هذه المنشأة كل منها على حدة بشكل مفصل[٢٨] (الشكل ٢١-٢٢).

-التكية:

تتألف من صحن سماوي تتوسطه بركة مستطيلة تتوزع حوله مجموعة من المباني تكاد تكون مستقلة عن بعضها، يحيط بها جميعًا سور مستطيل أطواله (١٢٥ × ٩٤ مترًا) يخترقه باب في الجهة الغربية وآخر في الجهة الشرقية، يصل التكية بالسوق والمدرسة، وثالث صغير في الجهة الشمالية تتقدمه قبة صغيرة محمولة على أعمدة. (الشكلان:٢٣-٢٤). أما الحدائق فنجدها تشغل الفراغ الحاصل بين السور والمباني وكذلك بعضًا من أقسام الصحن الواسع نميز في التكية ست مبان قد توزعت حول صحن واسع، ثلاثة في كل جزأيها الشمالي والجنوبي، وهي شبه مستقلة عن بعضها ويوجد بينها الطراز المعماري الشكل العام المتمثل في الواجهات، وفي الأروقة المطلة

على الصحن بأقواسها الفارسية وعمدها ذات التيجان المقرنصة، وبالقباب التي هي أداة التسقيف في كل مكان، وأخيرًا في تناوب اللونين الأبيض والأسود في الجدران والأقواس (الشكل ٢٥). وفيما يلي نقدم وصفًا مفصلاً لهذه المباني:

- المسجد:

يحتل الجناح القبلي ويتألف من رواق عريض أمامه، أما القاعة فلها شكل مربع ضلعه ١٦ مترًا مسقوفة بقبة عالية من نوع القباب العثمانية لها رقبة كثيرة النوافذ وطاسة نصف كروية بالرصاص ويحمل القبة أربعة أقواس ملتصقة بجدران القاعة السميكة. زوايا الانتقال بين الأقواس مشغولة بمثلثات كروية عادية دون مقرنصات أو حنايا، وينفتح في جدران القاعة الأربعة شبابيك على الحدائق ويعلوها في كل جدار نافذة، وهذه النوافذ مع نوافذ القبة كانت من الجص المعشق بالزجاج الملون الذي تتألف منه مواضيع زخرفية رائعة، ذهب أكثرها مع الأسف (الشكل: ٢٦). واجهات المسجد الخارجية مبنية بمداميك من الحجر الملون يتناوب فيها الأبيض والأسود وتبدو الزخارف في الواجهة الشمالية فقط وهي عبارة عن كسوة من الرخام الملون والقاشاني الجميل.

وفي هذه الواجهة أيضًا يقع باب الحرم الرائع الصنع، المفتوح ضمن إيوان واسع على جانبيه محرابان مزينان بالقرنصات وفوق الباب أيضًا مقرنصات مزودة بالدلايات الحجرية وذلك تطور للمقرنصات المعروفة في العهود السابقة (الشكل: ٢٧). ونشير هنا إلى وجود لوحة رخامية تعلو ساكف الباب نقش عليها سطران باللغة التركية وبخط نسخي، تؤرخ بناء التكية ويحيط بالباب إطار من الزخارف الهندسية مركبة بواسطة قطع الرخام الملون (أبيض وأسود وأحمر). في زاويتي الجدار الشمالي للمسجد تقوم مئذنتان عاليتان كالاسطوانتين، لكنهما تتألفان من مضلع كثر الوجوه مبنيتان بالحجر الكلسي، ولهما رأس مخروطي مدبب يشبه قلم الرصاص، وفي كل مئذنة شرفة للأذان تحملها مقرنصات حجرية، ويبدو أن هاتين المئذنتين حددتا بعد ذلك في حدود سنة ١٧٤٦ (الشكل: ٢٨).

أما في داخل الحرم فنجد محرابًا تعلوه المقرنصات وتحيط به زخارف من الفسيفساء الرخامية وإلى جانبه منبر من الرخام الأبيض وتزين الجدران مجموعات من ألواح القاشاني موزعة فوق الشبابيك. ويتقدم المسجد رواق يرتفع من مستوى الصحن محمول على أعمدة ذات تيجان مقرنصة، مسقوف بثلاث قباب، وأمامه رواق آخر أقل ارتفاعًا منه، يطل على صحن التكية مباشرة، وله سقف خشبي مائل، ومحمول على قناطر وعمد موزعة على ثلاث جهات، سبع قناطر في الجهة الشمالية وثلاث في كل من الجهتين الشرقية والغربية، وأقواس هذه القناطر من النوع الفارسي، وحجارتها من لونين أبيض وأسود بالتناوب أما العمد فلها تيجان مقرنصة، ولكنها ذات شكل جديد مبتكر [٢٩].

- المجموعتان السكنيتان:

تتوزع غرف السكن على جناحين غربي وشرقي، في كل منهما ست غرف مربعة الشكل (٧ أمتار تقريبًا) يتقدمهما رواق يفصل بينهما وبين الصحن، والكل مسقوف بقباب، لكن قباب الغرف أكثر ارتفاعًا، وأكبر حجمًا من قباب الرواق هذا وفي كل غرفة مدفئة من الحجر المنحوت، ولها مدخنة تبرز فوق القباب كالمئذنة الصغيرة (الشكل: ٢٩). العنصر الزخرفي الهام الذي نجده هنا، هو ألواح القاشاني الجميلة التي كسيت بها المناطق الواقعة فوق الأبواب والشبابيك في سائر أنحاء التكية والمدرسة، ويغلب اللونان الأخضر والأزرق على قاشاني التكية، ولا نجد اللون الأحمر إلا في بعضها القليل.

- الجناح الشمالي من التكية:

تميز فيه قاعتين كبيرتين تمتدان من الشمال إلى الجنوب، أحدهما في الجانب الغربي والأخرى في الجانب الشرقي طول كل منهما أربعون مترًا، يقسمها إلى رواقين صفين من العضائد الغليظة تحمل قباب السقف الأربع عشرة (الشكل:٣٠). ويتوسط هاتين القاعتين بناء مؤلف من ثلاث غرف يتقدمه رواق على أعمدة على شاكلة الأروقة المحيطة بالصحن ويعتقد الدكتور الريحاوي بأن الغرفة الوسطى لهذا البناء كان مطبخًا بدليل أن القباب الأربع فيها دون سائر قباب التكية، مفتوحة في وسطها وعليها مناور من أجل مرور الدخان وبخار الطبخ، فضلاً عن وجود حوض للماء لحاجات الطبخ أيضًا، ولعل الغرفتين المجاورتين كانتا لموائد الطعام، أما القاعتان الكبيرتان فكانتا للمؤذن، وقد بطل ذلك منذ سنوات طويلة وشغلت التكية باستثناء مسجدها بمعروضات المتحف الحربي [٣٠].

-المدرسة:

وهي بناء مستقل يقع إلى الشرق من التكية أطوالها (٤٥ × ٤٠ م) تشبه في طراز عمارتها وتصميمها مبنى التكية المتقدم وصفه، في وسطها صحن مزود ببركة مستطيلة. تحيط به مجموعة من الغرف الصغيرة المسقوفة بالقباب في كل منها

مدفئة على شاكلة غرف التكية، وأمام الغرف رواق يحيط بالصحن تغطيه أيضًا القباب الصغيرة، محمول على أقواس وعمد قليلة الارتفاع، بالنسبة لأعمدة رواق التكية (الشكلان:٣١-٣٢).

في المدرسة أيضًا مسجد خاص بها، ليس له مآذن ولا منبر فهو مصلى على شكل غرفة مربعة تبرز عن حدود البناء باتجاه الجنوب مسقوفة بقبة. لها رقبة مضلعة مزودة بالنوافذ، لم يبق من نوافذ المسجد المعشقة بالزجاج الملون سوى واحدة فقط، ويكسو جدرانه ألواح القاشاني، ويتخلها شبابيك وخزائن كتب، ويتوسط الجدران شريط من بلاطات القاشاني، رسمت عليها شرافات كموضوع زخرفي [٣١]. وأمام المسجد مسطبتان ضمن رواق مؤلف من ثلاث قناطر، زينت جدرانه بأشرطة من الزخارف الملونة من نوع الأبلق ورصع ما فوق الباب بألواح القاشاني. وللمدرسة باب رئيسي كبير منقوش في منتصف واجهتها الشمالية وأربعة أخرى صغار تصل المدرسة بالحدائق المحيطة بها، ويؤدي الباب الرئيسي- إلى دهليز متسع على جانبيه إيوانان صغيران كغرفتين للحراسة، ينتهي برواق على أعمدة يشرف على الصحن مسقوف بثلاث قبات، للوسطى منها رقبة، خالية من النوافذ، بل حل محلها كوى مزخرفة، والباب واسع مفتوح ضمن إيوان، ويقابله باب آخر مماثل له، مفتوح في الطرف الشمالي من السوق. ولكل منهما واجهة غنية بالزخارف، نجدها في القوس ذي الحجارة الملونة بالتناوب، وفي الأشرطة المنقوشة على شكل ضفائر وفي الحليات المستديرة المرصعة، والحجارة الملونة المفصصة الخ...[٣٢]

-السوق:

يتألف السوق من صنفين من الدكاكين بطول ٨٥ مترًا في كل صف اثنان وعشرون دكانًا تشبه الأواوين مسقوفة بأقباء طويلة، وينتهي السوق من جهته الغربية بباب واسع يؤدي إلى التكية، وباب آخر من جهة الشرق يؤدي إلى خارج المنطقة، وتوجد على الباب كتابة تشير إلى تجديده في عهد السلطان مصطفى الثالث الذي تولى السلطنة بين سنتين ١٧٥٧-١٧٧٣ ولقد زال الجناح الشرقي من الصف الشمالي للدكاكين وحلت محله أبنية حديثة لوزارة التربية، ثم أصلحت الدكاكين الأخرى واستخدمت مع المدرسة سوقًا سياحيًا للصناعات اليدوية افتتح منذ بضع سنين. (الشكل٣٣)[٣٣].

-العناصر الزخرفية:

على الرغم من طابع البساطة المسيطر على هذه المجموعة المعمارية فإن المتأمل لها يحس بانشراح ومتعة مبعثها ما تتجلى به من أناقة وانسجام في الخطوط ومن تناوب ألوان مداميك جامعها وحجارة قناطرها. وما في ألواح الخزف الملون (القاشاني) فوق سواكف أبواب قاعاتها من بريق وجاذبية، وتكاد العناية بالزخارف تنحصر- في جامعها الذي يحتوي على عناصر زخرفية عديدة، نشاهدها في مقرنصاته الرائعة، وفي الفسيفساء الرخامية التي تزين المحراب وفي نوافذ الجص المطعمة بالزجاج الملون الموزعة في أطراف القبة، إلى غير ذلك من أنواع الزينة والزخرفة[٣٤] (الشكل:٣٤).

خَاتِمَةٌ

هكذا نلاحظ من خلال ما تقدم مدى التطورات التي طرأت على المنشآت المعمارية خلال العهد العثماني، وذلك لدخول الطابع الفني الخاص بذلك العصر والذي فرض صفته على تلك المنشآت المعمارية وصبغها بذلك اللون الفني، بحيث يمكن في العمارة الإسلامية أن يميز خصائص هذا العصر وذلك من خلال المقارنة بين المباني التي بقيت شاهد على ذلك الطابع الخاص بالعهد العثماني، بحيث رأينا أن ذلك اهتمام تجلى في بناء الخانات والأسواق، وكذلك الدور السكنية التي أصبحت في هذا العهد تشمل ثلاثة أجنحة الحر ملك والسلملك والخد ملك، كما شمل هذا الاهتمام المجمعات المعمارية التي أطلق عليها اسم التكية والتي تضم المدرسة والمسجد والسوق.

وتذخر دمشق القديمة بالعديد من المباني التي تعود للعهد العثماني من الخانات والبيوت السكنية والتكية والجوامع، الأمر الذي قضي- منا كآثاريين العمل والسعي الحثيثين للحفاظ على هذه الشواهد المعمارية لتلك الفترة وتوظيفها بما يتلاءم مع طبيعة المبنى حتى نتمكن من الحفاظ على ذلك التراث المعماري المتميز سواء بعناصره المعمارية أو الزخرفية.

الملاحق

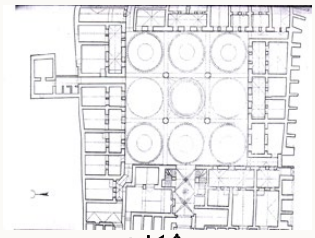

شكل١
مخطط خان اسعد باشا
[عن الريحاوي: العمارة العربية الإسلامية]

شكل٢
مدخل الخان [بعدسة الباحث]

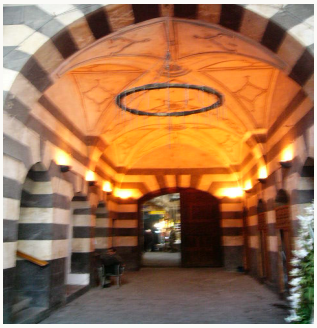

شكل٣
المقرنصات التي تعلو بوابة الخان [بعدسة الباحث]

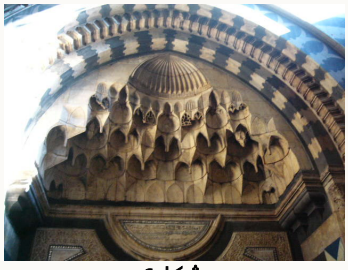

شكل٤
الدركاة [بعدسة الباحث]

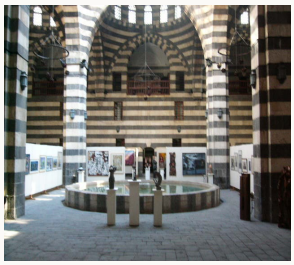

شكل٥
صحن الخان تتوسطه البحرة [بعدسة الباحث]

شكل٦
القبة الوسطى [بعدسة الباحث]

شكل٧
قباب الخان من الخارج [بعدسة الباحث]

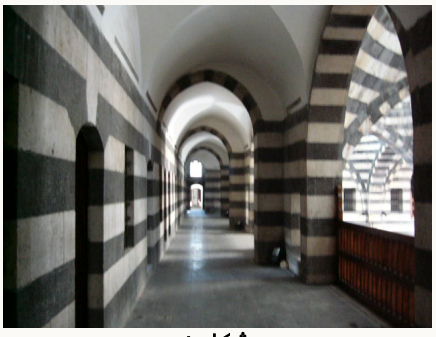

شكل ٨
رواق مقبب في الطابق الثاني [بعدسة ا الباحث]

شكل٩
واجهة الطابق الثاني المطلة على الصحن
[بعدسة الباحث]

شكل١٠
نوافذ القباب [بعدسة الباحث]

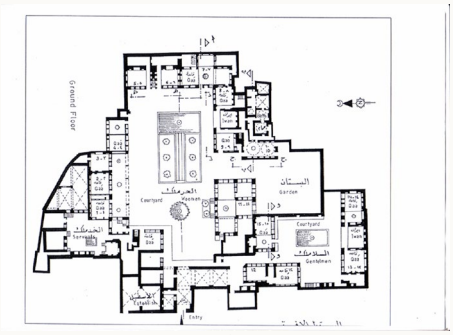

شكل١١
مخطط قصر العظم [مديرية المباني]

شكل١٢
مدخل القصر [بعدسة الباحث]

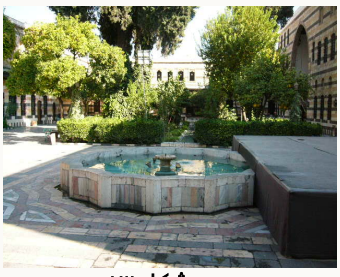

شكل ١٣
قسم الحر ملك تتوسطه البحرة [بعدسة الباحث]

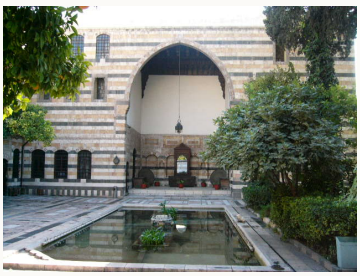

شكل١٤
الإيوان الجنوبي [بعدسة الباحث]

شكل١٥
رواق الإيوان الشمالي [بعدسة الباحث]

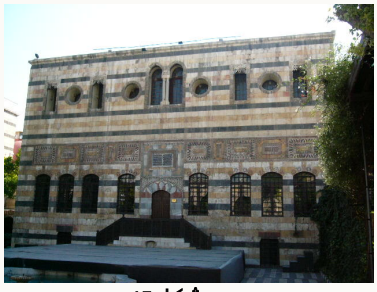

شكل١٦
واجهة القاعة الكبرى [بعدسة الباحث]

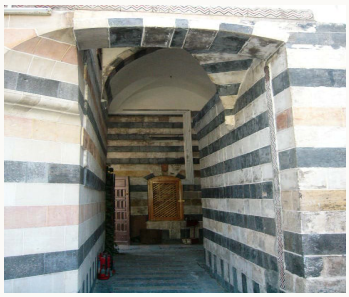

شكل١٧
الممر الواصل بين قسم الحر ملك والسلملك [بعدسة الباحث]

شكل١٨
قسم السلملك تتوسطه البحرة [بعدسة الباحث]

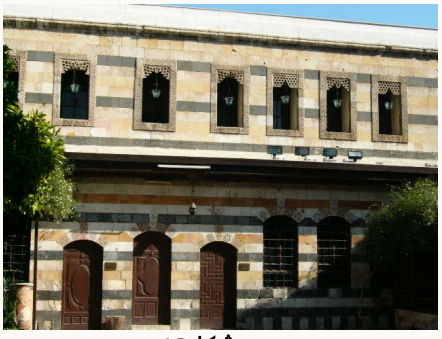

شكل١٩
النوافذ المزينة بأطر جصية [بعدسة الباحث]

شكل٢٠
سقف الإيوان الجنوبي المزين بالعجمي [بعدسة الباحث]

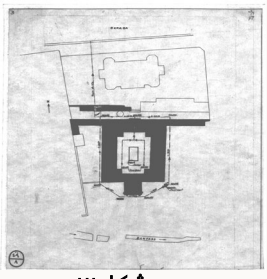

شكل٢١
موقع عام للتكية [مديرية المباني]

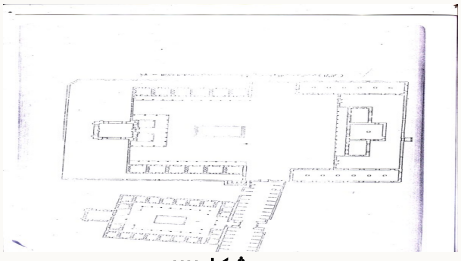

شكل٢٢
مخطط التكية السليمانية [مديرية المباني]

شكل٢٣
مدخل التكية الغربي [بعدسة الباحث]

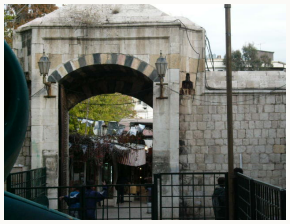

شكل٢٤
المدخل الشرقي [بعدسة الباحث]

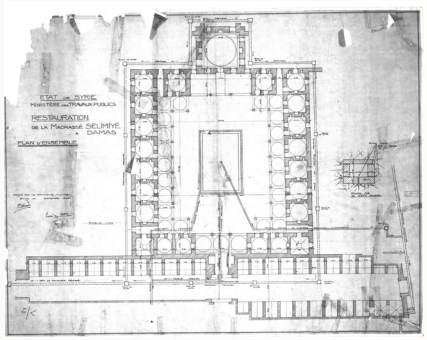

شكل٢٥
مسقط عام [مديرية المباني]

شكل٢٦
صحن الجامع تتوسطه البحرة [بعدسة الباحث]

شكل٢٨
مئذنتي الجامع [بعدسة الباحث]

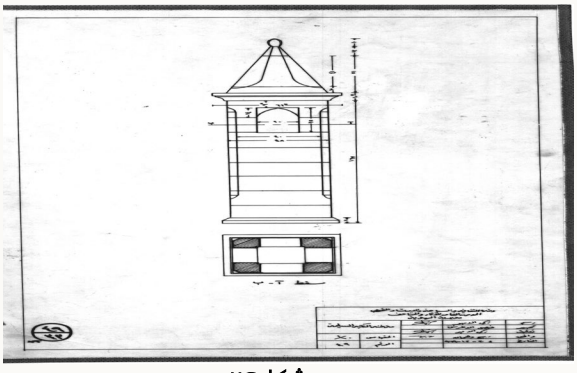

شكل٢٩
مدخنة التكية [مديرية المباني]

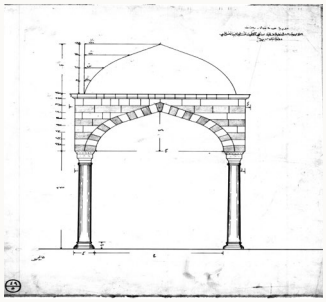

شكل٣٠
الواجهة الشمالية [مديرية المباني]

شكل٣١
صحن المدرسة تتوسطه البحرة [بعدسة الباحث]

شكل٣٢
الأروقة المسقوفة بالقباب [بعدسة الباحث]

شكل٣٣
السوق بالقباب [بعدسة الباحث]

شكل٣٤
زخارف القاشاني في سواكف الأبواب بالقباب [بعدسة الباحث]

الهَوامِشُ:

(1) Dussaud., Le Temple de Jupiter Damascenien et ses transformations aux epoques chretienne et musulmane, Syria 3, 1922, Pp. 35- 53.

(٢) دوروتيه زاك، **دمشق تطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية**، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، ترجمة قاسم طوير، مراجعة نزيه الكواكبي, ٢٠٠٥، ص٢١.

(3) Sack D., 1989, Entwicklung und Struktur einer orientaisch- islamischen Stadt, Mainz am Rhein: verlag Philip von Zabern, p.29

(4) Wulzinger K& Watzinger C.,1924, Damascus Die islamische Stadt, p.26

(٥) الريحاوي، عبد القادر، **العمارة العربية الإسلامية**، وزارة الثقافة، دمشق،١٩٧٩م، ص ٢٥.

(٦) خماش، نجدة، **دراسات في الآثار الإسلامية**، ط٣، جامعة دمشق، ١٩٩٣ -١٩٩٤، ص١٨٥.

(٧) خربوطلي، شكران، ومصطفى فوزي وعلي عبد الكريم، **الحضارة العربية الإسلامية**، آثار وفنون، جامعة دمشق ٢٠٠٨، ص٢٢٧- ٢٢٨.

(٨) خربوطلي، شكران ومصطفى فوزي وعلي عبد الكريم، المرجع السابق، ص٢٢٩.

(٩) الريحاوي، عبد القادر، **مدينة دمشق**، دمشق، ١٩٦٩، ص ٢١٤- ٢٢٤.

(١٠) زكار، سهيل وشكران خربوطلي، **الحضارة العربية الإسلامية**، ط١، دمشق ٢٠٠٦، ص ٥٦ – ٥٧.

(١١) الريحاوي، عبد القادر، **خانات مدينة دمشق**، الحوليات الأثرية العربية السورية، م٢٥، ج١-٢، ١٩٧٥، ص ٨٥.

(١٢) الريحاوي، عبد القادر، **مدينة دمشق**، المرجع السابق، ص٦٤.

(١٣) الريحاوي، عبد القادر، **خانات مدينة دمشق**، المرجع السابق، ص ٦٦.

(١٤) عميري، إبراهيم وجبور خزامى، **خان أسعد باشا**، وزارة الثقافة، دمشق، د.ت، ص١٦- ٢٤.

(١٥) بهنسي، عفيف، **الفن الإسلامي**، دمشق ١٩٨٦، ص ١٥١.

(١٦) الريحاوي، عبد القادر، **خانات مدينة دمشق**، المرجع السابق، ص٦٦- ٨٦.

(١٧) يحيى، فؤاد، **جرد أثري لخانات دمشق**، الحوليات الأثرية العربية السورية، م ٣١، ١٩٨١، ص ٩٦.

(١٨) الريحاوي، عبد القادر، **خانات مدينة دمشق**، المرجع السابق، ص ٦٨.

(١٩) عميري، إبراهيم وجبور خزامى، المرجع السابق، ص٤٨.

(٢٠) الشهابي، قتيبة، **دمشق تاريخ وصور**، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦، ص ٢٨١.

(٢١) قدور، محمد سالم، **قصر العظم**، ط١، الجمعية التعاونية، دمشق، ١٩٩٧، ص ٢٤.

(٢٢) أبو خليل، شوقي، **الحضارة العربية الإسلامية**، ط١، دمشق، ١٩٩٦، ص ٢٥

(٢٣) قدور، محمد سالم، المرجع السابق، ص ١٣- ١٥.

(٢٤) قدور، محمد سالم، المرجع السابق، ص ١٦.

(٢٥) الريحاوي، عبد القادر، **العمارة العربية الإسلامية**، ط٢، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٩، ص ١٩٩.

(٢٦) قدور، محمد سالم، المرجع السابق، ص ١٨.

(٢٧) الشهابي، قتيبة، المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٢٨) أصلان آبا، أوقطي، **فنون الترك وعمائرهم**، ترجمة احمد محمد عيسى، استانبول ١٩٨٧، ص ٦٧- ٦٨.

(٢٩) الريحاوي، عبد القادر، **العمارة العربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٢٤٠- ٢٤٤.

(٣٠) خماش، نجدة، المرجع السابق، ص ١٩٥- ١٩٦.

(٣١) ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة اللّه، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق المنجد ودهان، دمشق ١٩٥٤، ص ٢٤٤ – ٢٤٥.

(٣٢) واستنجر، كارل، **الآثار الإسلامية في دمشق**، مراجعة قاسم طوير، ١٩٨٤، ص ٨٨- ٨٩.

(٣٣) شافعي، فريد، **العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها**، دمشق ١٩٨٢، ص ١٠١- ١٠٢.

(٣٤) عبد الحق، سليم عادل، **مشاهد دمشق الأثرية**، دمشق ١٩٥٠، ص ٤٤.